بَعْضُ صِفَاتِ دُخَلاءِ السَّوْءِ

١ - اللُّؤْمُ

اللُّؤْمُ - يَا بُنَيَّ - ضِدُّ الْكَرَمِ(١)، فَهُوَ اسْمٌ لِلأَخْلاقِ وَالأَفْعَالِ الْمَذْمُومَةِ الَّتِي تَظْهَرُ مِنَ اللَّئِيمِ، وَكُلُّ شَيْءٍ خَبُثَ فِي بَابِهِ فَهُوَ لُؤْمٌ، كَمَا أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ شَرُفَ فِي بَابِهِ فَهُوَ كَرَمٌ(٢).

فَالْكَرَمُ صِفَةٌ مُلازِمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ، وَالْفُجُورِ خَلَّةٌ طُبِعَ عَلَيْهَا اللَّئِيمُ.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: «**الْمُؤْمِنُ غِرٌّ(٣) كَرِيمٌ، وَالْفَاجِرُ خَبٌّ(٤) لَئِيمٌ**»(٥).

---

(١) «مَقَايِيسُ اللُّغَة» (٥/ ٢٢٦).
(٢) «مُفْرَدَاتُ اللُّغَة» للراغب (ص٤٢٩).
(٣) «الغِرُّ -بالكَسْرِ- الجَاهِلُ بالشَّرِّ الغَافِل عَنْهُ، والجَمْعُ أَغْرَارٌ وغِرَارٌ.
(٤) الخَبُّ - بالفَتْحِ ويُكْسَرُ - الخَدَّاعُ المُفْسِدُ.
(٥) حَسَنٌ،أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٧٩٠)،وَحَسَّنه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٩٣٥).

وَاللَّئِيمُ – يَا بُنَيَّ – لَيْسَ لَهُ عَهْدٌ ، وَلا أَمَانَةٌ ، وَلا دِينٌ ، وَلا حُرْمَةٌ ، خَبِيثُ الطَّبْعِ،تَخَالُهُ حَقُوداً، حَسُوداً، شَامِتاً، بَاغِياً، سَاهِياً، فَاجِراً، فَخُوراً، كَاذِباً، مَلُولاً، صِفَاتٌ إِنْ رَأَيْتَهَا مُجْتَمِعَاتٍ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ لَهَا أَخَوَاتٍ.

أَيْ بُنَيَّ، لَوْ شِئْتَ لَقُلْتُ لَكَ كَلِمَةً وَاحِدَةً: «الْزَمِ الْكَرِيمَ، وَتَجَافَ عَنِ اللَّئِيمِ تَنْفَرِدْ بِالرَّاحَةِ»(١).

لأَنَّ الكَرَمَ :اسْمٌ للأَخْلاقِ وَالأَفْعَالِ المَحْمُودَةِ الَّتِي يَتَّصِفُ بِهَا الصَّاحِبُ الصَّالِحُ، وَاللُّؤْمُ الَّذِي يَتَّصِفُ بِهِ دُخَلاءُ السَّوْءِ بِالضِّدِّ مِنْ ذَلِكَ .

أَيْ بُنَيَّ، دَعِ اللَّئِيمَ يَعْبُرُ وَلا تَتَعَرَّضْ لَهُ؛ فَإِنَّكَ مَتَىٰ حَرَّكْتَهُ حَرَّكْتَ جِيفَةً، فَلَوْ تَوَحَّشْتَ فِي الرُّبْعِ(٢) ، فَلَيْسَ ثَمَّ وَحْشَةٌ أَشَدُّ مِنَ اللَّئِيمِ.

(١) أَيْ: أَنِّي لَوْ شِئْتُ اكْتَفَيْتُ بِتِلْكَ الكَلِمَاتِ عَنْ كِتَابَةِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ.
(٢) الرُّبْعِ: أَيْ صَحْرَاءِ الرُّبْعِ الخَالِي،تَقَعُ فِي الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ لِلْيَمَنِ .

وَمِنْ غُرَرِ الحِكَمِ: «قَدْ تُكْتَسَبُ الأَخْلاقُ مِنْ مُعَاشَرَةِ الْكِرَامِ، وَفَسَادُهَا مِنْ مُخَالَطَةِ اللِّئَامِ، وَرُبَّ طَبْعٍ كَرِيمٍ أَفْسَدَتْهُ مُعَاشَرَةُ الأَشْرَارِ، وَطَبْعٍ لَئِيمٍ أَصْلَحَتْهُ مُصَاحَبَةُ الأَخْيَارِ»(١).

صُحْبَةُ اللِّئَامِ مِحْنَةُ الكِرَامِ:

أَيْ بُنَيَّ، التَّارِيخُ حَافِلٌ بِذِكْرِ مِحْنَةِ الْكُرَمَاءِ حِينَ يَقْتَرِنُ أَحَدُهُمْ بِرَجُلٍ مِنْ هَذَا الصِّنْفِ، وَمَا ذَاكَ إِلاَّ لأَنَّهُمْ قَدَّمُوا الصُّحْبَةَ قَبْلَ التَّجْرِبَةِ، فَلَوْ أَنَّهُمْ قَدَّمُوا مَا أَخَّرُوا، لَكَانُوا فِي ذِمَّةِ الحَمْدِ والسَّلامَةِ.

فَهَذَا أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ كَتَبَ لِصَدِيقٍ لَهُ - بَعْدَ أَنْ لاَحَتْ لَهُ مِنْهُ لاَئِحَةٌ مِنْ لُؤْمٍ - :«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي لا أَعْرِفُ لِلْمَعْرُوفِ طَرِيقًا أَوْعَرَ مِنْ طَرِيقِهِ إِلَيْكَ؛ فَالمَعْرُوفُ

(١) «حِكَم وَأَخْلاق عَرَبِيَة» لمحمَّدٍ المَكِّي بْنِ الحُسَيْنِ (ص ٤٠، ٤١).

لَدَيْكَ ضَائِعٌ، وَالشُّكْرُ عِنْدَكَ مَهْجُورٌ، وَإِنَّمَا غَايَتُكَ فِي المَعْرُوفِ أَنْ تَحْقِرَهُ، وَفِي وَلِيِّهِ أَنْ تَكْفُرَهُ»(١).

وَكَتَبَ العَتَّابِيُّ لِصَدِيقٍ لَهُ: «تَأَتَّيْنَا إِفَاقَتَكَ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَتَرَقَّبْنَا انْتِبَاهَكَ مِنْ رَقْدَتِكَ، وَصَبَرْنَا عَلَىٰ تَجَرُّعِ الْغَيْظِ فِيكَ، حَتَّىٰ بَانَ لَنَا الْيَأْسُ مِنْ خَيْرِكَ، وَكَشَفَ لَنَا الصَّبْرُ عَنْ وَجْهِ الْغَلَطِ فِيكَ، فَهَأَنَا أَنَا قَدْ عَرَفْتُكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ فِي تَعَدِّيكَ لِطَوْرِكَ، وَاطَّرَاحِكَ حَقَّ مَنْ غَلِطَ فِي اخْتِيَارِكَ!!»(٢).

وَكَتَبَ أَحَدُهُمْ إِلَىٰ صَدِيقٍ لَهُ -بَعْدَ أَنْ ذَاقَ مِنْهُ مَرَارَةَ اللَّوْمِ-: «إِنَّ مَوَدَّةَ الأَشْرَارِ مُتَّصِلَةٌ بِالذِّلَّةِ وَالصَّغَارِ، تَمِيلُ مَعَهُمَا، وَتَتَصَرَّفُ فِي آثَارِهِمَا، وَقَدْ كُنْتُ أُحِلُّ مَوَدَّتَكَ بِالمَحَلِّ النَّفِيسِ، وَأُنْزِلُهَا بِالمَنْزِلِ الرَّفِيعِ، حَتَّىٰ رَأَيْتُ ذِلَّتَكَ

(١) «العَقْدُ الفَرِيْد» (٤/٣١٩).
(٢) «العَقْدُ الفَرِيْد» (٤/٣٢٠).

عِنْدَ الْقِلَّةِ، وَضَـرَعَكَ عِنْدَ الحَـاجَـةِ، وَتَغَـيُّـرَكَ عِنْدَ الاسْتِغْنَاءِ، وَاطِّرَاحَكَ لإِخْوَانِ الصَّفَاءِ، فَكَانَ ذَلِكَ أَقْوَىٰ أَسْبَابِ عُـذْرِي فِي قَطِيعَتِكَ عِنْدَ مَنْ يَتَصَفَّحُ أَمْرِي وَأَمْرَكَ بِعَيْنِ عَدْلٍ لا يَمِيلُ إِلَىٰ هَوًى ، وَلا يَرَىٰ الْقَبِيحَ حَسَنًا »[1].

تِلْكَ – يَا بُنَيَّ – شَكْوَىٰ مَنْ ذَاقَ المَرَارَةَ، وَالسَّعِيدُ مَنِ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ.

كَمَا قِيلَ:

« تَعِسَتْ مُقَارَنَةُ اللَّئِيمِ؛ فَإِنَّهَا
شَرَقُ النُّفُوسِ ،وَمِحْنَةُ الْكُرَمَاءِ
أَنَا فِي زَمَنٍ (قُلَّبٍ)[2] وَمَعَاشِرٍ
يَتَلَوَّنُون تَلَوُّنَ الحِـرْبَاءِ

---

(١) « العَقْدُ الفَرِيْد » (٤ / ٣٢٠).
(٢) فِي « الدِّيوان » (غَادر) فأصلحها محمد بن إبراهيم الحَمَد، كَمَا في =

قَـدْ أَصْبَـحُوا لِلدَّهْرِ سُبَّـةَ نَاقِمٍ
مِنْ كُـلِّ مَـصْـدَرِ مِـحْنَةٍ وَبَلاءِ
وَأَشَـدُّ مَـا يَلْقَىٰ الْفَـتَىٰ مِنْ دَهْرِهِ
فَـقْـدُ الكِرَامِ وَصُـحْـبَـةُ اللُّؤَمَـاءِ

وَاعْلَمْ - يَا بُنَيَّ - أَنَّكَ مَهْمَا تَوَسَّلْتَ إِلَيْهِ بِأَسْبَابِ الأَمَلِ بُغْيَةَ صَلاحِهِ ، فَلا يُرْضِيهِ إِلاَّ ذِلَّتُكَ، وَأَنْ تُقَسَّمَ اللاَّئِمَـةُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، وَلَسْتَ بِفَاعِلٍ؛ لأَنَّكَ لَسْتَ مِنْ شَكْلِهِ ، وَهُوَ يَرُومُ مِثْلَهُ، فَهُوَ الدَّاءُ الَّذِي لا دَوَاءَ لَهُ.

كَمَا قِيلَ:

لِـكُـلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْـتَطَبُّ بِـهِ
إِلاَّ الحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا(١)

= كِتَابِهِ «الهِمَّة العَالِيَة» إِلَىٰ (قُلَّبٍ)؛ لأَنَّ كَلِمَةَ (غَادِر) خَطَأٌ لا يَجُوزُ؛ لأَنَّ مَا حَصَلَ فِي الزَّمَنِ فَهُوَ مِنَ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - ، فَمَنْ سَبَّهُ فَقَدْ سَبَّ اللهَ . انظر «أَلْفَاظ وَمَفَاهِيم» لابْنِ عُثَيْمِين (ص٥٠).

(١) انظر «دِيوَان البَارُودِيِّ» (ص٣١).

obeikandl.com

وَلَوْ حَاوَلْتَ نَشْرَ مَعْرُوفِكَ عِنْدَهُ ، وَأَحْسَنْتَ لَهُ الدَّهْرَ كُلَّهُ لَمْ تَرَ مِنْهُ إِلاَّ الْجُحُودَ وَنُكْرَانَ الْجَمِيلِ، وَلا يَزَالُ يَعُودُ أَوَّلُهُ عَلَىٰ آخِرِهِ، كَمَا قَالَ مَنْ عَايَنَهُ وَخَبَرَهُ أَبُو الطَّيِّبِ :

إِذَا أَنْتَ أَكْـرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَـهُ
وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا[١]
وَوَضْعُ النَّدَا [٢] فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلا
مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَا

الانْقِبَاضُ عَنِ اللِّئَامِ:

أَيْ بُنَيَّ، إِذَا كَانَ الاسْتِرْسَالُ[٣] مَعَ كُلِّ أَحَدٍ خِلافَ الْحَزْمِ، وَهُوَ مَعَ اللِّئَامِ عَجْزٌ؛ فَلا يَصْلُحُ الاسْتِرْسَالُ إِلاَّ

(١) لَقَدْ صَدَقَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فَإِنَّ « أَصْلَ كُلِّ عَدَاوَةٍ الصَّنِيعَةُ إِلَىٰ (اللِّئَامِ) « الأَنْذَالِ » كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - « تَهْذِيبُ الآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ » لابْنِ مُفْلِحٍ (ص٤٢٦) .

(٢) النَّدَا - بِزِنَةِ الْفَتَىٰ - : الْجُودُ وَالْكَرَمُ .

(٣) الاسْتِرْسَالُ يَكُونُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَكُونُ فِيهِ الاسْتِرْسَالُ : كَالْمَزْحِ، وَالْحُبِّ ،وَالْبُغْضِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ .

obeikandi.com

لِثِقَةٍ، وَفِي خَلْوَةٍ؛ لأَنَّ الاسْتِرْسَالَ أَمَامَ الْعَامَّةِ إِنَّمَا يَأْتِي مِنْ تَرْكِ التَّلَمُّحِ لِلْعَوَاقِبِ.

قَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: «إِيَّاكَ وَسَقْطَةَ الاسْتِرْسَالِ؛ فَإِنَّهَا لا تُسْتَقَالُ»(١).

وَقِيلَ: «ضِنَّ بِالاسْتِرْسَالِ مِنْكَ، حَتَّى تَجِدَ لَهُ مُسْتَحِقًّا»(٢).

أَيْ بُنَيَّ، النَّاسُ جُبِلُوا عَلَى الْقُرْبِ مِمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُمْ، وَالْبُعْدِ عَمَّنْ قَرُبَ مِنْهُمْ، فَلا تَدَعْ هَذِهِ الْفَائِدَةَ تَشْرُدُ عَنْكَ؛ فَإِنَّكَ بِحَاجَةٍ إِلَيْهَا أَوْقَاتَكَ كُلَّهَا، وَمَعَ كُلِّ أَحَدٍ.

وَمِنْ غُرَرِ الْفَوَائِدِ: «إِذَا أَقْبَلَ عَلَيْكَ مُقْبِلٌ بِوُدِّهِ، فَسَرَّكَ أَلاَّ يُدْبِرَ عَنْكَ - فَلا تُكْثِرِ الإِقْبَالَ عَلَيْهِ، فَالإِنْسَانُ شَأْنُهُ التَّبَاعُدُ مِمَّنْ قَرُبَ مِنْهُ، وَالدُّنُوُّ مِمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ»(٣).

(١) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣ / ٣١).
(٢) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣ / ٣١).
(٣) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (١ / ٥٤٥).

أَيْ بُنَيَّ، لَيْسَ الْمُرَادُ أَنْ تَنْقَبِضَ عَنِ النَّاسِ، حَتَّىٰ تَصِيرَ مُتَزَمِّتًا، كَلاَّ، فَمَا هَذَا أَرَدْتُ، وَلَكِنَّ التَّوَسُّطَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا عَيْنُ كَمَالِكَ؛ فَقَدْ قِيلَ: «الإِفْرَاطُ فِي التَّوَاضُعِ يُوجِبُ الْمَذَلَّةَ، وَالإِفْرَاطُ فِي الْمُؤَانَسَةِ يُوجِبُ الْمَهَانَةَ»[1].

وَقِيلَ: «مِنَ التَّوَاضُعِ مَا يَضَعُ».

وقَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ: «الانْقِبَاضُ عَنِ النَّاسِ مَكْسَبَةٌ لِلْعَدَاوَةِ، وَالانْبِسَاطُ إِلَيْهِمْ مَجْلَبَةٌ لِقُرَنَاءِ السَّوْءِ»[2].

وَمِنْ جَمِيلِ مَا قِيلَ فِي الاسْتِرْسَالِ:

إِذَا مَا عَمَمْتَ النَّاسَ بِالأُنْسِ لَمْ تَزَلْ
لِصَاحِبِ سَوْءٍ مُسْتَفِيدًا وَكَاسِبَا
فَإِنْ تُقْصِهِمْ يَرْمُوْكَ عَنْ ظَهْرِ بِغْضَةٍ
فَكُنْ خِلْطًا إِنْ شِئْتَ أَوْ كُنْ مُجَانِبَا

(١) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (١/ ٥٤٥).
(٢) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣/ ٣١).

وَلا تَنْتَبِذْ عَنْهُمْ وَلا تَدْنُ مِنْهُمُ
وَكُنْ أَمْرًا بَيْنَ ذَلِكَ مُقَارِبا[1]

أَيْ بُنَيَّ، قَدْ يَحْسُنُ أَنْ تَكُونَ مَعَ اللِّئَامِ لِلانْقِبَاضِ أَقْرَبَ مِنْكَ لِلاسْتِرْسَالِ؛ لأَنَّهُمْ لا يَعْرِفُونَ قَدْرَكَ إِلاَّ بِذَلِكَ، فَقَدْ قِيلَ:

وَمَا لِي وَجْهٌ فِي اللِّئَامِ وَلا يَدٌ
وَلَكِنَّ وَجْهِي فِي الْكِرَامِ عَرِيضُ
أَهَشُّ إِذَا لاقَيْتُهُمْ وَكَأَنَّنِي
إِذَا أَنَا لاقَيْتُ اللِّئَامَ مَرِيضُ[2]

وَقَالَ آخَرُ:

فِيَّ انْقِبَاضٌ وَحِشْمَةٌ، فَإِذَا
صَادَفْتُ أَهْلَ الْوَفَاءِ وَالكَرَمِ

(١) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣/ ٣١).
(٢) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣/ ٣٢).

أَرْسَلْتُ نَفْسِي عَلَىٰ سَجِيَّتِهَا
وَقُلْتُ مَا قُلْتُ غَيْرَ مُحْتَشِمِ[1]

(١) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣/ ٣٢).

obeikandl.com

٢ - تَرْكُ الصَّلاةِ

أَىْ بُنَيَّ، إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَتَهَاوَنُ بِالصَّلاةَ- وَلَوْ صَلاةً وَاحِدَةً- فَاغْسِلْ يَدَيْكَ مِنْهُ،وَلا تَعُدْ إِلَيْهِ؛فَإِنَّهُ رَجُلُ سَوْءٍ؛ فَالصَّلاةُ صِلَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا حَالُهُ مَعَ رَبِّهِ وَخَالِقِهِ وَرَازِقِهِ مِنَ الْجُحُودِ وَنُكْرَانِ الْجَمِيلِ، أَفَتَرْجُو أَنْ يَكُونَ حَالُهُ مَعَكَ عَلَىٰ أَحْسَنِ الأَحْوَالِ وَأَتَمِّهَا ؟!.

يَا بُنَيَّ، إِنَّ الْقَلْبَ مَكَانُ تَعْظِيمِ الرَّبِّ – جَلَّ جَلالُهُ –، فَإِذَا لَمْ تُعْمِرْهُ بِطَاعَةِ الرَّحْمَنِ ،كَانَ لِلشَّيْطَانِ مِنْهُ نَصِيبٌ، بَلْ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَسْتَحْوِذُ عَلَيْهِ ، حَتَّىٰ يَصِيرَ صَاحِبُهُ مِنْ جُنُودِهِ وَأَعْوَانِهِ.

وَإِذَا رَأَىٰ إِبْلِيسُ غُرَّةَ وَجْهِهِ

حَيَّا وَقَالَ : فَدَيْتُ مَنْ لَمْ يُفْلِحِ

وَإِذَا كَانَ العِلْمُ – يَا بُنَيَّ – قَدْ لَزِمَ بِعَزْلِ المَرِيضِ عَنِ الصَّحِيحِ، ولاسِيَّمَا إِذَا كَانَ المَرَضُ مُعْدِيًا؛ فَعَزْلُ مَرِيضِ الدِّينِ أَوْلَىٰ مِنْ عَزْلِ مَرِيضِ الْبَدَنِ.

obeikandl.com

٣ - الحِرْصُ عَلَى الدُّنْيَا

أَيْ بُنَيَّ، لا تُصَاحِبْ حَرِيصًا عَلَىٰ الدُّنْيا، وَلا يَكُنْ هَمُّكَ مُجَالَسَةَ أَهْلِهَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُوكَ لِلتَّطَلُّعِ إِلَىٰ مَا هُمْ عَلَيْهِ.

وَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - قَدْ أَمَرَ بِالإِعْرَاضِ عَمَّنْ هَذَا حَالُهُ، فَقَالَ: ﴿ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا (٢٩) ﴾ [النَّجْمُ: ٢٩].

وَالنَّبِيُّ - ﷺ - كَرِهَ لأُمَّتِهِ النَّظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ، وَلاسِيَّمَا مَتَىٰ خَشِيَ الْمَرْءُ أَنْ يَزْدَرِيَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَالصُّحْبَةُ أَوْلَىٰ بِتَرْكِهَا.

فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: «**إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ مَنْ فُضِّلَ**

عَلَيْهِ فِي المَالِ وَالخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ مِمَّنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ». وَزَادَ مُسْلِمٌ: «**فَهُوَ أَجْدَرُ أَلاَّ تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ**»(١).

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ - رَحِمَهُ اللهُ -: «هَذَا الحَدِيثُ جَامِعٌ لِمَعَانِي الخَيْرِ؛ لأَنَّ المَرْءَ لاَ يَكُونُ بِحَالٍ تَتَعَلَّقُ بِالدِّينِ مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ مُجْتَهِدًا فِيهَا - إِلاَّ وَجَدَ مَنْ هُوَ فَوْقَهُ، فَمَنْ طَلَبَتْ نَفْسُهُ اللَّحَاقَ بِهِ اسْتَقْصَرَ حَالَهُ، فَيَكُونُ أَبَدًا فِي زِيَادَةٍ تُقَرِّبُهُ مِنْ رَبِّهِ، وَلاَ يَكُونُ عَلَىٰ حَالٍ خَسِيسَةٍ مِنَ الدُّنْيَا، إِلاَّ وَجَدَ مِنَ الدُّنْيَا مَنْ هُوَ أَخَسُّ حَالاً مِنْهُ، فَإِذَا تَفَكَّرَ فِي ذَلِكَ، عَلِمَ أَنَّ نِعْمَةَ اللهِ وَصَلَتْ إِلَيْهِ دُونَ كَثِيرٍ مِمَّنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَمْرٍ أَوْجَبَهُ، فَيُلْزِمُ نَفْسَهُ الشُّكْرَ، فَيَعْظُمُ اغْتِبَاطُهُ بِذَلِكَ فِي مَعَادِهِ»(٢).

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣).

(٢) «فَتْحُ البَارِي» (١١ / ٣٣٠).

فَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ – يَا بُنَيَّ – فَاصْحَبْ مَنْ هُوَ فَوْقَكَ فِي الْعِلْمِ والدِّينِ، وَمَنْ هُوَ دُونَكَ فِي الدُّنْيَا.

فَقَدْ قِيلَ: «إِذَا عَلِمْتَ فَلا تُفَكِّرْ فِي كَثْرَةِ مَنْ دُونَكَ مِنَ الجُهَّالِ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَىٰ مَنْ فَوْقَكَ مِنَ الْعُلَمَاءِ»(١).

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُتْبَةَ: «صَحِبْتُ الأَغْنِيَاءَ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا أَكْثَرَ هَمًّا مِنِّي؛ أَرَىٰ دَابَّةً خَيرًا مِنْ دَابَّتِي، وَثَوْبًا خَيْرًا مِنْ ثَوْبِي، وصَحِبْتُ الْفُقَرَاءَ، فَاسْتَرَحْتُ».

وَقَالَ ابْنُ الْعَمِيدِ:

مَنْ شَاءَ عَيْشًا هَنِيئًا يَسْتَفِيدُ بِهِ
فِي دِينِهِ ثُمَّ فِي دُنْيَاهُ إِقْبَالا
فَلْيَنْظُرَنَّ إِلَىٰ مَنْ فَوْقَهُ أَدَبًا
وَلْيَنْظُرَنَّ إِلَىٰ مَنْ دُونَهُ مَالا(٢)

(١) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص٧١).
(٢) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص٧١).

٤ - النَّمِيمَةُ

أَيْ بُنَيَّ، النَّمَّامُ لا يَكُنْ لَكَ صَاحِبًا، وَكَذَلِكَ الْمُغْتَابُ؛ فَإِنَّهُ لا يَزَالُ يَقَعُ فِي أَعْرَاضِ النَّاسِ، وَيُسْمِعُكَ مَا تَكْرَهُ، وَلا يَزَالُ هَذَا دَأْبَهُ، حَتَّىٰ تُصْبِحَ الْغِيبَةُ وَالنَّمِيمَةُ عِنْدَكَ كَالْعَسَلِ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُرَّةً كَالْعَلْقَمِ.

وَقَدْ قِيلَ: «إِيَّاكَ وَمُجَالَسَةَ الشِّرِّيرِ؛ فَإِنَّ طَبْعَكَ يَسْرِقُ مِنْ طَبْعِهِ، وَأَنْتَ لا تَدْرِي»(٢).

فَاعْرِضْ - يَا بُنَيَّ - عَمَّنْ هَذَا حَالُهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - يَقُولُ: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦)﴾ [الإِسْرَاءُ: ٣٦].

وَيَقُولُ: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨)﴾ [الأَنْعَامُ: ٦٨].

---

(١) «الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة» للرَّاغب الأصبهانيِّ (ص١٩٣).

وَيَقُولُ - سُبْحَانَهُ - فِي وَصْفِ عِبَادِهِ: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ [القَصَص: ٥٥].

فَمِنْ هَذِهِ النُّصُوصِ وَغَيْرِهَا - يَا بُنَيَّ - تَعْلَمْ أَنَّ الْتِفَاتَ الْفُؤَادِ وَالسَّمْعَ لِلْغِيْبَةِ مَسْئُولِيَّةٌ نُحَاسَبُ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَنَفْهَمُ مِنْهَا - أَيْضًا - تَحْرِيمَ الجُلُوسِ إِلَىٰ الْمُغْتَابِينَ، وَأَنَّ الإِعْرَاضَ عَنِ الاسْتِمَاعِ إِلَىٰ الْغِيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَنَحْوِهِمَا مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَمَتَىٰ وَافَقْتَهُ - يَا بُنَيَّ - عَلَىٰ قَوْلِهِ ،وَأَعَرْتَهُ سَمْعَكَ ، فَأَنْتَ -لاشكَّ- شَرِيكُهُ فِي الإِثْمِ ، كَمَا قِيلَ:

وَسَمْعَكَ صُنْ عَنْ سَمَاعِ الْقَبِيحِ
كَصَوْنِ اللِّسَانِ عَنِ النُّطْقِ بِهْ
فَإِنَّكَ عِنْدَ سَمَاعِ الْقَبِيحِ
شَرِيكٌ لِقَائِلِهِ فَانْتَبِهْ

٥ - التَّلَوُّنُ

أَيْ بُنَيَّ، ذُو الوَجْهَيْنِ لاَ يَكُنْ لَكَ صَاحِبًا ، وَحَقِيقَةُ ذِي الوَجْهَيْنِ – يَا بُنَيَّ – هُوَ : الَّذِي يَأْتِي كُلَّ إِنْسَانٍ بِمَا يُرْضِيهِ ، وَيَلْبَسُ لِكُلِّ حَالاتٍ لَبُوسَهَا ، كَمَا قِيلَ:

يَدُورُ مَعَ الزُّجَاجَةِ حَيْثُ دَارَتْ
وَيَلْبَسُ لِلسِّيَاسَةِ أَلْفَ لِبْسِ
فَعِنْدَ الْمُسْلِمِينَ يُعَدُّ مِنْهُمْ
وَيَأْخُذُ سَهْمَهُ مِنْ كُلِّ خُمْسِ
وَعِنْدَ الْمُلْحِدِينَ يُعَدُّ مِنْهُمْ
وَعَنْ مَارْكِسٍ يَحْفَظُ كُلَّ دَرْسِ
وَعِنْدَ الإِنْجِلِيزِ يُعَدُّ مِنْهُمْ
وَفِي بَارِيسَ مَحْسُوبٌ فَرَنْسِيّ

وَذُو الوَجْهَيْنِ يَأْتِيكَ يَحْلِفُ لَكَ أَنَّهُ مَعَكَ، وَعَلَىٰ رَأْيِكَ، وَيَأْتِي غَيْرَكَ فَيُظْهِرُ لَهُ أَنَّهُ مُخَالِفٌ لَكَ.

قَالَ أَحَدُهُمْ:

أَنَا كَالمِرْآةِ أَلْقَىٰ　　كُلَّ وَجْهٍ بِمِثَالِهِ

وَقَدْ يَذُمُّكَ عِنْدَهُ، وَيَذُمُّ غَيْرَكَ عِنْدَكَ، وَهَذَا غَايَةُ السُّقُوطِ.

يَا مَنْ تَلَوَّنَ فِي الطِّبَاعِ أَمَا تَرَىٰ

وَرَقَ الْغُصُونِ إِذَا تَلَوَّنَ يَسْقُطُ

وَأَنْتَ - يَا بُنَيَّ - بِفِطْرَتِكَ تَنْفِرُ مِنْ هَذَا الصِّنْفِ، فَلا تَرْتَاحُ لَهُ نَفْسُكَ، وَلا تُعِيرُهُ اهْتِمَامَكَ وَحَالَكَ.

إِلَيْكَ عَنِّي فَلَسْتُ مِمَّنْ إِذَا اتَّقَىٰ

عِضَاضَ الأَفَاعِي نَامَ فَوْقَ الْعَقَارِبِ

وَالنَّبِيُّ - ﷺ - حَذَّرَ مِنْ هَذَا الصِّنْفِ مِنَ النَّاسِ،

وَبَيْنَ حَالَهُ؛ لِيَحْذَرَهُ النَّاسُ ، وَلِيُحَذِّرُوا مِنْ عَمَلِهِ .

فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «**تَجِدُ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللهِ ذَا الْوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ، وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ**».

وَوَصَفَ أَحَدُهُمْ صَاحِبًا لَهُ ، فَقَالَ: «مَوَدَّتُهُ مُتَنَقِّلَةٌ كَتَنَقُّلِ الأَفْيَاءِ(٢)، وَأُخُوَّتُهُ مُتَلَوِّنَةٌ كَتَلَوُّنِ الحِرْبَاءِ»(٣).

قُلْ لِلَّذِي لَسْتُ أَدْرِي مِنْ تَلَوُّنِهِ
أَنَاصِحٌ أَمْ عَلَىٰ غِشٍّ يُدَاجِينِي؟(٤)
تَغْتَابُنِي عِنْدَ أَقْوَامٍ ، وَتَمْدَحُنِي
فِي آخَرِيْنَ،وَكُلٌّ مِنْكَ يَأْتِينِي(٥)

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٧١٧٩)، ومسلم (٢٥٢٦).
(٢) الأَفيَاء: جَمْعُ فَيْءٍ - بِالفَتْحِ - وَهُوَ مَا كَانَ شَمْسًا فَيَنْسَخُهُ الظِّلُّ.
(٣) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣/ ٤٠).
(٤) المُدَاجاة : المُدَارَاة وَالمُلاطَفة .
(٥) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (٣/ ٤٠).

وَكَانَ السَّلَفُ أَشَدَّ نُفُوراً مِمَّنْ عُرِفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مِنَ النَّاسِ.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ عُرْوَةَ - رَحِمَهُ اللهُ - : « لأَنْ يَكُونَ لِي نِصْفُ وَجْهٍ، وَنِصْفُ لِسَانٍ عَلَىٰ مَا فِيهِمَا مِنْ قُبْحِ المَنْظَرِ، وَعَجْزِ المَخْبَرِ - أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ ذَا وَجْهَيْنِ ، وَذَا لِسَانَيْنِ، وَذَا قَوْلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ » (١).

وَقَدْ تَتَابَعَتِ الشَّكْوَىٰ مِمَّنْ هَذَا حَالُهُ؛ إِذْ لا يَسْلَمُ مِنْهُ عَصْرٌ وَلا مِصْرٌ (٢) ، وَمَا مِنْ إِنْسَانٍ إِلاَّ وَقَدِ ابْتُلِيَ بِهَذَا الصِّنْفِ مِنَ النَّاسِ، إِلاَّ مَا نَدَرَ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ وَاصِفًا بَعْضَ مَنْ قَدِ ابْتُلِيَ بِهِمْ:

---

(١) « أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين » (ص٢٦٧).

(٢) المِصْرُ - بالكَسْرِ - البَلَد ، والجَمْعُ : أَمْصَارٌ .

وَكَمْ مِنْ صَدِيقٍ وُدُّهُ بِلِسَانِهِ
خَئُونٌ بِظَهْرِ الْغَيْبِ لا يَتَذَمَّمُ(١)
يُضَاحِكُنِي عَجَبًا إِذَا مَا لَقِيْتُهُ
وَيُقْذِعُنِي(٢) مِنْهُ- إِذَا غِبْتُ- أَسْهُمُ
كَذَلِكَ ذُو الْوَجْهَيْنِ يُرْضِيكَ شَاهِدًا
وَفِي غَيْبِهِ إِنْ غَابَ صَابٌ(٣) وَعَلْقَمُ(٤)

(١) لا يَتَذَمَّمُ : لا يَسْتَنْكِفُ .
(٢) أَقْذَعَهُ: رَمَاهُ بالفُحْشِ وَسُوْءِ القَوْلِ .
(٣) صَاب: شَجَرٌ مُرٌّ كالعَلْقَمِ ، وَاحِدَتُهُ صَابَةٌ .
(٤) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص٢٦٧).

٦ - الحَسَدُ

أَيْ بُنَيَّ، الحَاسِدُ لا يَكُنْ لَكَ صَاحِباً، فَهُوَ يَتَمَلَّقُ لَكَ عِنْدَ حُضُورِكَ، وَيَغْتَابُكَ فِي غَيْبَتِكَ، وَيَشْمَتُ عِنْدَ مُصِيبَتِكَ، ثَلاثُ خِصَالٍ اعْرِفْهُ بِهَا، وَدَلِيلُ مَا فِي قَلْبِهِ كَمِينٌ عَلَىٰ وَجْهِهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ لَكَ إِلَيْهِ ذَنْبٌ إِلاَّ دَوَامَ نِعَمِ اللهِ عَلَيْكَ.

قَالَ الْعُتْبِيُّ:

أُفَكِّرُ مَا ذَنْبِي إِلَيْكَ فَلا أَرَىٰ
لِنَفْسِيَ جُرْمًا، غَيْرَ أَنَّكَ حَاسِدُ

وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ الطَّائِيُّ:

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ
طُوِيَتْ، أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ

لَوْلا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ
مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ الْعُودِ
لَوْلا التَّخَوُّفُ لِلْعَوَاقِبِ لَمْ تَزَلْ
لِلْحَاسِدِ النُّعْمَىٰ عَلَىٰ المَحْسُودِ

وَكُلُّ النَّاسِ قَدْ تُرْجَىٰ مَوَدَّتُهُمْ إِلاَّ الحَاسِدَ فَإِنَّهُ لا يَرْضَىٰ عَنْكَ، حَتَّىٰ تَزُولَ نِعَمُ اللهِ عَلَيْكَ؛ فَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ؛ فَإِنَّ الَّذِي يُؤْذِيكَ مِنْ نَفْسِهِ وَعَيْنِهِ لَيْسَ كَالَّذِي يُؤْذِيكَ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ.

وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَحْمُودٌ الوَرَّاقُ حِينَ قَالَ:

أَعْطَيْتُ كُلَّ النَّاسِ مِنْ نَفْسِي الرِّضَا
إِلاَّ الحَسُودَ فَإِنَّهُ أَعْيَانِي
لا أَنَّ لِي ذَنْبًا لَدَيْهِ عَلِمْتُهُ
إِلاَّ تَظَاهُرَ نِعْمَةِ الرَّحْمَنِ
يَطْوِي عَلَىٰ حَنَقٍ حَشَاهُ لأَنْ رَأَىٰ
عِنْدِي كَمَالَ غِنيً وَفَضْلُ بَيَانِ

مَـا إِنْ أَرَىٰ يُرْضِيـهِ إِلاَّ ذِلَّتِي
وَذَهَابُ أَمْـوَالِي وَقَطْعُ لِسَـانِي

لا يَجْتَمِعُ الإيمَانُ والحَسَدُ:

وَالحَسَدُ مَتَىٰ حَلَّ فِي قَلْبِ عَبْدٍ، ارْتَحَلَ عَنْهُ الإِيمَانُ، وَأَيُّ عَبْدٍ ارْتَحَلَ عَنْ قَلْبِهِ الإِيمَانُ لا يُرْجَىٰ خَيْرُهُ ، وَلا يُؤْمَنُ شَرُّهُ، وَعَبْدٌ هَذَا حَالُهُ لا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُصَاحَبَ.

فَفِي «سُنَنِ النَّسَائِيِّ»(١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ: «**لا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ: الإِيمَانُ، والحَسَدُ**».

وَقَدْ تَتَابَعَتْ تَحْذِيرَاتُ الْعُلَمَاءِ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ مِنْ مُصَاحَبَةِ الحَاسِدِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ أَكْثَرَ مَا يُوجَدُ الحَسَدُ مِنَ الجِيرَانِ، وَالأَصْحَابِ، ثُمَّ مِنَ الأَقَارِبِ.

(١) حَسَنٌ، أَخْرَجَهُ النَّسَائِي (٣١١١)، وابْنُ حِبَّانَ فِي «صحيحه» (٤٦٠٦)، وَحَسَّنه الأَلْبَانِيُّ في «صَحِيح التَّرغيب» (٢٨٨٦).

قَالَ ابْنُ حِبَّانَ - رَحِمَهُ اللهُ - : «أَكْثَرُ مَا يُوجَدُ الحَسَدُ بَيْنَ الأَقْرَانِ[1]، أَوْ مِنْ تَقَارُبِ الشَّكْلِ[2]؛ لأَنَّ الكَتَبَةَ لا يَحْسُدُهَا إِلاَّ الكَتَبَةُ، كَمَا أَنَّ الحَجَبَةَ لا يَحْسُدُهَا إِلاَّ الحَجَبَةُ، وَلَنْ يَبْلُغَ المَرْءُ مَرْتَبَةً مِنْ مَرَاتِبِ هَذِهِ الدُّنْيَا، إِلاَّ وَجَدَ مَنْ يُبْغِضُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَحْسُدُهُ فِيهَا، وَالحَاسِدُ خَصْمٌ مُعَانِدٌ، لا يَجِبُ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَجْعَلَهُ حَكَمًا عِنْدَ نَائِبَةٍ تَحْدُثُ؛ فَإِنَّهُ إِنْ حَكَمَ لَمْ يَحْكُمْ إِلاَّ عَلَيْهِ، وَإِنْ قَصَدَ لَمْ يَقْصِدْ إِلاَّ لَهُ، وَإِنْ حَرَمَ لَمْ يَحْرِمْ إِلاَّ حَظَّهُ، وَإِنْ أَعْطَىٰ أَعْطَىٰ غَيْرَهُ، وَإِنْ قَعَدَ لَمْ يَقْعُدْ إِلاَّ عَنْهُ، وَإِنْ نَهَضَ لَمْ يَنْهَضْ إِلاَّ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ لِلْمَحْسُودِ عِنْدَهُ ذَنْبٌ إِلاَّ النِّعَمَ الَّتِي عِنْدَهُ.

فَلْيَحْذَرِ المَرْءُ مَا وَصَفْتُ مِنْ أَشْكَالِهِ، وَأَقْرَانِهِ، وَجِيرَانِهِ، وَبَنِي أَعْمَامِهِ»[3].

---

(١) الأَقْرَان: جَمْعُ قِرْنٍ -بالكَسْرِ-، وَهُوَ كُفْؤُكَ فِي الشَّجَاعَةِ، وَالعِلْمِ، وَغَيْرِهِمَا.
(٢) الشَّكْل -بالفَتْحِ والكَسْرِ- المِثْل، والجَمْعُ أَشْكَالٌ وشُكُولٌ.
(٣) «رَوْضَةُ العُقَلاءِ» (ص ١٠٨-١٠٩).

وَمِنْ دُرَرِ العَلاَّمَةِ ابْنِ الجَوْزِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - قَوْلُهُ:

«الْعُزْلَةُ عَنِ الخَلْقِ سَبَبُ طِيبِ الْعَيْشِ، وَلاَبُدَّ مِنْ مُخَالَطَةٍ بِمِقْدَارٍ، فَدَارِ الْعَدُوَّ واسْتَحله(١)؛ فَرُبَّمَا كَادَكَ فَأَهْلَكَكَ، وأَحْسِنْ إِلَىٰ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ، وَاسْتَعِنْ عَلَىٰ أُمُورِكَ بِالْكِتْمَانِ، وَلْتَكُنِ النَّاسُ عِنْدَكَ مَعَارِفَ، فَأَمَّا أَصْدِقَاءُ فَلا؛ لأَنَّ أَعَزَّ الأَشْيَاءِ وُجُودُ صَدِيقٍ، ذَاكَ أَنَّ الصَّدِيقَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي مَرْتَبَةٍ مُمَاثِلٍ.

فَإِنْ صَادَفْتَهُ عَامِيًّا لَمْ تَنْتَفِعْ بِهِ؛ لِسُوءِ أَخْلاقِهِ، وَقِلَّةِ عِلْمِهِ وَأَدَبِهِ، وَإِنْ صَادَفْتَ مُمَاثِلاً أَوْ مُقَارِبًا حَسَدَكَ.

وَإِذَا كَانَ لَكَ يَقَظَةٌ، تَلَمَّحْتَ مِنْ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ حَسَدِكَ ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [مُحَمَّد: ٣٠].

وَإِذَا أَرَدْتَ تَأْكِيدَ ذَلِكَ، فَضَعْ عَلَيْهِ مَنْ يَضْحَكُ عِنْدَهُ، فَلا يَخْرُجُ إِلَيْهِ إِلاَّ بِمَا فِي قَلْبِهِ.

(١) علَّها: استَمِلْهُ.

فَإِنْ أَرَدْتَ الْعَيْشَ فَابْعِدْ عَنِ الحَسُودِ؛ لأَنَّهُ يَرَىٰ نِعْمَتَكَ، فَرُبَّمَا أَصَابَهَا بِالْعَيْنِ.

فَإِنِ اضْطُرِرْتَ إِلَىٰ مُخَالَطَتِهِ، فَلا تُفْشِ إِلَيْهِ سِرَّكَ، وَلا تُشَاوِرْهُ، وَلا يَغُرَّنَّكَ تَمَلُّقُهُ لَكَ، وَلا مَا يُظْهِرُهُ مِنَ الدِّينِ وَالتَّعَبُّدِ؛ فَإِنَّ الحَسَدَ يَغْلِبُ الدِّينَ.

وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّ قَابِيلَ أَخْرَجَهُ الحَسَدُ إِلَىٰ الْقَتْلِ، وَأَنَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ بَاعُوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ (١).

وَكَانَ أَبُو عَامِرٍ الرَّاهِبُ مِنَ الْمُتَعَبِّدِينَ الْعُقَلاءِ، وَعَبْدُ اللهِ ابْنُ أُبَيٍّ مِنَ الرُّؤَسَاءِ، أَخْرَجَهُمَا حَسَدُ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ إِلَىٰ النِّفَاقِ، وَتَرْكِ الصَّوَابِ.

وَلا يَنْبَغِي أَنْ تَطْلُبَ لِحَاسِدِكَ عُقُوبَةً أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ فِيهِ؛ فَإِنَّهُ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ مُتَّصِلٍ لا يُرْضِيهِ إِلاَّ زَوَالُ نِعْمَتِكَ.

---

(١) البَخْس: ـ بالفتح ـ النَّاقِص.

وَكُلَّمَا امْتَدَّت امْتَدَّ عَذَابُهُ، فَلا عَيْشَ لَهُ ، ومَا طَاب عَيْشُ أَهْلِ الجَنَّةِ إِلاَّ حِينَ نُزِعَ الحَسَدُ وَالْغِلُّ مِنْ صُدُورِهِمْ.

وَلَوْلا أَنَّهُ نُزِعَ تَحَاسَدُوا ، وَتَنَغَّصَ عَيْشُهُم»[1].

أَيْ بُنَيَّ، عَلَّنِي قَدْ أَطَلْتُ عَلَيْكَ؛ فَدَعْنِي أَخْلُصْ إِلَىٰ فَائِدَةٍ يَعِيهَا قَلْبُكَ: «الحَسَدُ مِنْ أَخْلاقِ اللِّئَامِ».

أَيْ بُنَيَّ، الحَسَدُ مِنْ أَخْلاقِ اللِّئَامِ، وَلا يَكُونُ إِلاَّ مِنْ مَهَانَةِ نَفْسٍ ، وَسُوءِ طَبْعٍ.

وَهُوَ – أَيْضًا – مِنْ أَخْلاقِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ – فِيهِمْ: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١٢٠].

---

(١) «صَيْدُ الخَاطِرِ» (ص٣٦٧).

التَّخَلُّصُ مِنْ صُحْبَةِ الحَاسِدِ:

عَلَيْكَ - يَا بُنَيَّ - بِتَقْوَىٰ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، وَالْمُحَافَظَةَ عَلَىٰ أَذْكَارِ طَرَفَيِ النَّهَارِ، بِمَا فِي ذَلِكَ المُعَوِّذَتَان، وَفِرَّ مِنْ صَاحِبٍ هَذَا حَالُهُ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ، وَلا يَضُرُّكَ بَعْدَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَقَدْ قَالَ عِمَارَةُ بْنُ عَقِيلٍ:

مَا ضَرَّنِي حَسَدُ اللِّئَامِ وَلَمْ يَزَلْ
ذُو الْفَضْلِ يَحْسُدُهُ ذَوُو النُّقْصَانِ

وَمَا أَجْمَلَ قَوْلُ ابْنُ الجَوْزِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - فِيمَا نَحْنُ نُدَنْدِنُ حَوْلَهُ:

«رَأَيْتُ كِلابَ الصَّيْدِ إِذَا مَرَّتْ بِكِلابِ المَحَلَّة[١] نَبَحَتْهَا، وَبَالَغَتْ وَأَسْرَعَتْ خَلْفَهَا، وَكَأَنَّهَا تَرَاهَا مُكَرَّمَةً

(١) المَحَلَّة: المَنْزِل.

مُجَلَّلَةً ، فَتَحْسُدُهَا عَلَىٰ ذَلِكَ.

وَرَأَيْتُ كِلابَ الصَّيْدِ حِينَئِذٍ لا تَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، وَلا تُعِيرُهَا الطَّرْفَ ،وَلا تُعِدُّ نُبَاحَهَا شَيْئًا، فَرَأَيْتُ أَنَّ كِلابَ الصَّيْدِ كَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ تِلْكَ الْكِلابِ؛ لأَنَّ تِلْكَ غَلِيظَةُ الْبَدَنِ ،كَثِيفَةُ الأَعْضَاءِ، لا أَمَانَةَ لَهَا، وَهَذِهِ لَطِيفَةٌ دَقِيقَةُ الْخِلْقَةِ، وَمَعَهَا آدَابٌ قَدْ نَاسَبَتْ خِلْقَتَهَا اللَّطِيفَةَ، وَإِنَّهَا تَحْبِسُ الصَّيْدَ عَلَىٰ مَالِكِهَا خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ، أَوْ مُرَاعَاةَ شُكْرِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهَا؛ فَرَأَيْتُ أَنَّ الأَدَبَ وَحُسْنَ الْعِشْرَةِ تَتْبَعُ لَطَافَةَ الْبَدَنِ ، وَصَفَاءَ الرُّوحِ، وَهَكَذَا الْمُؤْمِنُ الْعَاقِلُ لا يَلْتَفِتُ إِلَىٰ حَاسِدِهِ ، وَلا يُعِدُّهُ شَيْئًا؛ إِذْ هُوَ فِي وَادٍ ، وَذَاكَ فِي وَادٍ ، ذَاكَ يَحْسُدُهُ عَلَىٰ الدُّنْيَا، وَهَذَا هِمَّتُهُ الآخِرَةُ ، فَيَا بُعْدَ مَا بَيْنَ الوَادِيَيْنِ! »[1].

(١) «صَيْدُ الخَاطِرِ» (٣٥٦، ٣٥٧).

٧ - الكَـــذِبُ

أَيْ بُنَيَّ، الكَذَّابُ لا يكُنْ لَكَ صَاحِبًا، وَكَيْفَ تُصَاحِبُ مَنْ مَلَّهُ الْعُقَلاءُ، وَزَهَدَ فِيهِ كُلُّ ذِي لُبٍّ، وَمَلَّهُ حَتَّىٰ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ ؟! ؛ لأَنَّ «مَنِ اسْتَحْلَىٰ رِضَاعَ الكَذِبِ عَسُرَ فِطَامُهُ»(١).

وَ«لا يَلْزَمُ الكَذَّابُ شَيءٌ إِلاَّ غَلَبَ عَلَيْهِ»(٢).

وَ«مَنْ قَلَّ صِدْقُهُ قَلَّ صَدِيقُهُ»(٣).

وَالنَّبِيُّ - ﷺ - يَقُولُ: «**إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ،**

(١) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص٢٩٢).
(٢) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص٢٩٢).
(٣) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص٢٨٩).

وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»(١).

وَمَنْ كَانَ هَذَا حَالَهُ، فَقَدْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ؛ لأَنَّهُ قَدْ قِيلَ: «إِنَّمَا يَكْذِبُ الْكَاذِبُ مِنْ مَهَانَةِ نَفْسٍ»(٢).

وَقَالَ الجَاحِظُ: «لَمْ يَكْذِبْ أَحَدٌ - قَطْ - إِلاَّ لِصِغَرِ قَدْرِ نَفْسِهِ عِنْدَهُ»(٣).

وَلَقَدْ أَحْسَنَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ القُدُّسِ حِيْنَ قَالَ:

وَدَعِ الكَذُوبَ، وَلا يَكُنْ لَكَ صَاحِبًا
إِنَّ الكَذُوبَ لَبِئْسَ خِلاًّ(٤) يُصْحَبُ(٥)

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٠٩٤)، ومُسلم (٢٦٠٧)، مِنْ حَدِيْث عَبد الله ابن مسعود - رضي الله عنه - .

(٢) «رَوْضَة العُقَلاء» (ص٧٨).

(٣) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص٢٩٢).

(٤) الخِلُّ-بالكَسْرِ والضَّمِّ - : الصَّدِيْق المُخْتَصُّ، والجَمْعُ أَخْلال.

(٥) انظر «جَوَاهِر الأَدَب» لأَحْمَد الهَاشِميِّ (ص٦٦٩).

٨ - الرَّغْبَةُ فِيمَا لا يَمْلِكُ

الْمُرْتَغِبُ - يَا بُنَيَّ - هُوَ الرَّاغِبُ إِلَىٰ غَيْرِ مَا عِنْدَهُ، وَهُوَ هُنَا مَنْ قَصَرَ هِمَّتَهُ عَلَىٰ مُلاحَقَةِ النِّسَاءِ، فَهَذَا صُحْبَةُ الْكَلْبِ خَيْرٌ مِنْ عِشْرَتِهِ(١)؛ إِذْ لَيْسَ لَهُ حُرْمَةٌ، وَلا مُرُوءَةٌ وَلا أَدَبٌ، فَهُوَ سَاقِطُ الْقَدْرِ، دَنِيءُ الهِمَّةِ، رَقِيقُ الدِّينِ، لا يَقْنَعُ بِمَا عِنْدَهُ، وَلا يَطِيبُ عَيْشُهُ إِلاَّ بِالتَّطَلُّعِ إِلَىٰ ما فِي رِحَالِ غَيْرِهِ، كَمَا قَالَ أَحَدُهُمْ - وَقَدْ سُئِلَ: مَا أَطْيَبُ الْعَيْشِ؟ - قَالَ: بَيْضَاءُ رُعْبُوبَةٌ(٢)، بِالطِّيبِ مَشْبُوبَةٌ(٣)، بِالشَّحْمِ مَكْرُوبَةٌ(٤).

وَمِثْلُ هَذَا الصِّنْفِ لا يَنْفَعُ مَعَهُ لَوْمَةُ لائِمٍ، كَمَا قَالَ أَحَدُهُمْ:

---

(١) لا تَظُنَّ - يا بُنَيَّ - أَنِّي قَدْ بَالَغتُ، فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ: «كَلْبٌ سَاخِرٌ خَيْرٌ مِنْ صَدِيقٍ غَادِرٍ» وَأَيُّ غَدْرٍ أَعظَمُ مِنَ الرَّاغِبِ إِلَىٰ مَا فِي رَحْلِ غَيْرِهِ؟!.

(٢) الرُّعْبُوبَة: النَّاعِمَة.

(٣) شَبَّهَا الطِّيبُ: زَادَ فِي حُسْنِهَا.

(٤) المَكْرُوبَة: الشَّدِيدَة الخَلْقِ وَالقُوَىٰ.

أَجِـدُ المَلامَـةَ فِي هَوَاكِ لَذِيذَةً
حُبًّا لِذِكْرِكِ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ[1]

وَقَالَ آخَرُ:

عَذْلُ الْعَوَاذِلِ حَوْلَ قَلْبِي التَّائِهِ
وَهُوَىٰ الأَحِبَّةِ فِيهِ مِنْ سَوْدَائِهِ[2][3]

وَهَذَا - يَا بُنَيَّ - غَايَةُ السَّفَهِ ، كَمَا قِيلَ :

أَرَىٰ سَفَهًا لِلْمَرْءِ تَعْلِيقَ قَلْبِهِ
بِغَانِيَةٍ[4] خَوْدٍ[5] مَتَىٰ تَدْنُ تَبْعُدِ[6]

---

(١) البَيت لأَبي الشِّيص، انظر «الزَّهَرَة» لأَبي بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ دَاوُدَ الأَصبَهَانِيُّ، تحقِيقُ الدُّكتور / إبرَاهِيمَ السَّامرائِيِّ.

(٢) سَوْدَاءُ القَلْبِ : حَبَّتُهُ .

(٣) «دِيوانُ المُتَنَبِّي» بشرح العُكْبَرِيِّ (١ / ١).

(٤) الغَانِيَة : المُسْتَغْنِية بحُسْنِهَا عَن الزِّينَة ، وَالجَمْعُ [illegible]انٍ .

(٥) الخَوْد -بالفَتْحِ- الشَّابَة الحَسَنَةُ الخَلْق النَّاعِمَةُ، والجَمْعُ خَوْدَاتٌ وَخُوْدٌ .

(٦) «دِيوانُ الأَعشَىٰ» (ص٤٧).

أَلا قَبَّحَ اللهُ نَفْسًا تَتَحَرَّىٰ الْعِزَّ فِيمَا يُذِلُّهَا!، أَمَا كَانَ فِيهِم نَفْسٌ تَسْمُو إِلَىٰ مَعَالِي الأُمُورِ كَنَفْسِ أَبِي عَلِيٍّ الشِّبْلِ، حَيْثُ يَقُولُ - مُفْتَخِرًا بِنَفْسِهِ -:

وَآنَفُ أَنْ تَعْتَاقَ قَلْبِي خَرِيدَةٌ
بِلَحْظٍ ،وَأَنْ يَرْوِيَ صَدَايَ(١) رُضَابُ(٢)
وَلِلْقَلْبِ مِنِّي زَاجِرٌ عَنْ مُرُوءَةٍ
يُجَنِّبُهُ طُرُقَ الْهَوَىٰ فَيُجَابُ(٣)

وَالنَّاسُ - يَا بُنَيَّ - يَتَفَاوَتُونَ، فَمِنْهُمُ الذَّكِيُّ الَّذِي يَسْتَخْدِمُ ذَكَاءَهُ فِيمَا يَضُرُّهُ، فَيُسَدِّدُ بِهِ سَهْمَهُ، فَيُصِيبُ مَقْتَلاً دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِ أَحَدٌ ، وَرُبَّمَا لا يَعْرِفُ هَذَا اللِّصَّ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يَقَعَ الْفَأْسُ عَلَىٰ الرَّأْسِ(٤).

(١) الصَّدَىٰ: العَطَشِ، وَبَابُهُ عَمِيَ.
(٣) الرُّضَاب: بِزِنَةِ الغُرَاب : الرِّيقُ المَمْصُوصُ المَرْشُوفُ.
(٣) «ذَمّ الهَوَىٰ» (ص ٤٨٠).
(٤) لا يَحْسَبْ هَؤُلاءِ أَنَّ نُفُوسَهُمْ قَدْ نَجَتْ ، فَقَدْ اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ أَنَّ لِكُلِّ بَاطِحٍ مِنَ النَّاسِ يَوْمًا يَلُوحُ ، وَالجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الَّذِي يَقُولُ:
لا تَحْسَبَنَّ إِمهَالَهَا إِهمَالَهَا غَرَّهَا إِمهَالُ خَالِقِهَا لَهَا

يَا رَامِيًا بِسِهَامِ اللَّحْظِ مُجْتَهِدًا
أَنْتَ الْقَتِيلُ بِمَا تَرْمِي فَلا تُصِبِ
وَبَاعِثَ الطَّرْفِ يَرْتَادُ الشِّفَاءَ لَهُ
طَوِّقْهُ؛ إِنَّهُ يَأْتِيكَ بِالْعَطَبِ(١)

وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْمَاهُ هَوَاهُ ، فَلا يُبَالِي بِمَنْ حَوْلَهُ مِنَ النَّاسِ، كَمَا قِيلَ: حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ، كَحَالِ بَعْضِهِمْ وَقَدِ اسْتُنْفِرَ لِلْجِهَادِ، فَكَانَ جَوَابُهُ:

يَقُولُونَ جَاهِدْ -يَا جَمِيلُ- بِغَزْوَةٍ
وَأَيُّ جِهَادٍ غَيْرَهُنَّ أُرِيدُ
لِكُلِّ حَدِيثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ
وَكُلُّ قَتِيلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيدُ(٢)

وَأَيُّ شَابٍّ مِنْ هَذَا الصِّنْفِ - يَا بُنَيَّ - عَمَرَ مَجْلِسًا

---

(١) انظر «فِتْنَةُ النَّظَرِ» لراقمه (ص٧٤).

(٢) انظر «ذَمُّ الهَوَى» (ص٤٧٣).

عَفِيفًا كَالنَّارِ صَادَفَ هَشِيمًا؛ لأَنَّ النُّفُوسَ جُبِلَتْ عَلَىٰ حُبِّ النِّسَاءِ، كَمَا قِيلَ:

إِنَّ النِّسَاءَ رَيَاحِينُ خُلِقْنَ لَكُمْ
وَكُلُّكُمْ يَشْتَهِي شَمَّ الرَّيَاحِينِ

وَمَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ نَفْسٌ أَبِيَّةٌ ، لَمْ يَكَدْ يَسْلَمُ مِنْ هَذِهِ الْبَلِيَّةِ، وَأَنْتَ – يَا بُنَيَّ – فِيمَا نَحْسَبُكَ – لَكَ أَنَفَةٌ مِنَ الرَّذَائِلِ، وَهِمَّةٌ فِي طَلَبِ الْفَضَائِلِ.

خُلِقْتُ أَبِيَّ النَّفْسِ لا أَتَّبِعُ الْهَوَىٰ
وَلا أَسْتَقِي إِلاَّ مِنَ الْمَشْرَبِ الأَصْفَىٰ
وَلا أَحْمِلُ الأَثْقَالَ فِي طَلَبِ الْعُلا
وَلا أَبْتَغِي مَعْرُوفَ مَنْ سَامَنِي خَسْفَا[1]
وَلا أَتَحَرَّىٰ الْعِزَّ فِيمَا يُذِلُّنِي
وَلا أَخْطُبُ الأَعْمَالَ كَي لا أَرَىٰ صَرْفَا

(١) يُقَالُ: سَامه خَسْفًا – بِفَتْحِ الخَاءِ وَضَمِّهَا– إِذَا أَوْلاهُ ذُلاً .

وَلَسْتُ عَلَىٰ طَبْعِ الذُّبَابِ مَتَىٰ يُذَدْ
عَنِ الشَّيْءِ يَسْقُطْ وَهْوَ يَرَىٰ الحَتْفَا[1]

وَهَذَا هُوَ الظَّنُّ بِكَ -يَا بُنَيَّ-، لَكِنْ قَدْ قِيلَ: مَنْ جَالَسَ جَانَسَ، وَقِيلَ: الصَّاحِبُ سَاحِبٌ، وَالنِّسَاءُ العَاقِلاتُ لا تَسْمُو نُفُوسُهُنَّ وَتَعْلُو هِمَّتُهُنَّ إِلاَّ لِمِثْلِ الَّذِي يَقُولُ:

لَقَدْ ضَلَّ مَنْ تَحْوِي هَوَاهُ خَرِيدَةٌ[2]
وَقَدْ ذَلَّ مَنْ تَقْضِي عَلَيْهِ كَعَابُ[3]
وَلَكِنَّنِي - وَالحَمْدُ للهِ - حَازِمٌ
أَعِزُّ إِذَ ذَلَّتْ لَهُنَّ رِقَابُ
وَلا تَمْلِكُ الحَسْنَاءُ قَلْبِي كُلَّهُ
وَلَوْ شَمَلَتْنَا رِقَّةٌ وَشَبَابُ

---

(١) «الشعر» لأَبِي مَنْصُور الهَرَوِي كَمَا فِي «ذَمّ الهَوَىٰ» (ص٤٨٠).
(٢) الخَرِيْدَة: البِكْرُ لَمْ تُمْسَسْ، والجَمْعُ خَرَائِدُ، وَخُرُدٌ، وَخُرَّدٌ.
(٣) كَعَاب - بزِنَةِ سَحَابٍ - الَّتِي نَهَدَ ثَدْيُهَا وَارتَفَعَ.

وَأَجْرِي وَلا أُعْطِي الهَوَىٰ فَضْلَ مِقْوَدِي

وَأَهْفُو وَلا يَخْفَىٰ عَلَيَّ صَوَابُ(١)

وَهَذَا صَحِيحٌ - يَا بُنَيَّ - ؛ لأَنَّ الدُّرَّ كُلَّمَا كَانَ عَزِيزًا كَانَ نَفِيسًا، وَلا عِبْرَةَ بِمَنْ هُنَّ عَلَىٰ طَبْعِ الذُّبَابِ.

﴿ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فَاطِر: ١٤].

وَالْعَاقِلُ إِذَا قَنِعَ بِمَا عِنْدَهُ ،جَعَلَ اللهُ فِيهَا الْبَرَكَةَ، وَوَجَدَ لَهَا لَذَّةً تُسَاوِي الدُّنْيَا، وَإِلاَّ فَالصَّوْمُ لَهُ وِجَاءٌ.

قَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ: «اعْلَمْ أَنَّ مِنْ أَوْقَعِ الأُمُورِ فِي الدِّينِ، وَأَنْهَكِهَا لِلْجَسَدِ، وَأَتْلَفِهَا لِلْمَالِ، وَأَقْتَلِهَا لِلْعَقْلِ، وَأَزْرَاهَا لِلْمُرُوءَةِ ، وَأَسْرَعِهَا فِي ذَهَابِ الْجَلالَةِ وَالْوَقَارِ - الْغَرَامُ بِالنِّسَاءِ.

وَمِنَ الْبَلاءِ عَلَىٰ الْمُغْرَمِ بِهِنَّ أَنَّهُ لا يَنْفَكُّ يَأْجَمُ(٢) مَا

(١) الشعر لأبي فِرَاسٍ الحَمْدَانِيِّ كَمَا فِي «دِيوَانِهِ» (ص١٣).
(٢) يَأْجَمُ: يَكْرَهُ وَيَمَلُّ ، وَبَابُهُ ضَرَبَ وَفَرِحَ .

عِنْدَهُ، وَتَطْمَعُ عَيْنَاهُ إِلَىٰ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ، وَإِنَّمَا النِّسَاءُ أَشْبَاهٌ.

وَمَا يَتَزَيَّنُ فِي الْعُيُونِ وَالْقُلُوبِ مِنْ فَضْلِ مَجْهُولاتٍ عَلَىٰ مَعْرُوفَاتٍ- بَاطِلٌ وَخُدْعَةٌ، بَلْ كَثِيرٌ مِمَّا يَرْغَبُ عَنْهُ الرَّاغِبُ مِمَّا عِنْدَهُ أَفْضَلُ مِمَّا تَتُوقُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ مِنْهُنَّ.

وَإِنَّمَا الْمُرْتَغِبُ عَمَّا فِي رَحْلِهِ مِنْهُنَّ إِلَىٰ مَا فِي رِحَالِ النَّاسِ -كَالْمُرْتَغِبِ عَنْ طَعَامِ بَيْتِهِ إِلَىٰ مَا فِي بُيُوتِ النَّاسِ.

بَلِ النِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ أَشْبَهُ مِنَ الطَّعَامِ بِالطَّعَامِ، وَمَا فِي رِحَالِ النَّاسِ مِنَ الأَطْعِمَةِ أَشَدُّ تَفَاضُلاً وَتَفَاوُتًا مِمَّا فِي رِحَالِهِمْ مِنَ النِّسَاءِ»[1].

(١) «الأَدَبُ الصَّغِيرُ والأَدَبُ الكَبِيرُ» لابْنِ الْمُقَفَّعِ (ص ١٤٩، ١٥٠).

٩ - دُنُوُّ الهِمَّةِ

دَنِيءُ الهِمَّةِ لا يُصَاحَبُ، وَلا يُسَايَرُ، وَلا يُسَارَرُ، وَكَيْفَ يُصَاحَبُ مَنْ تَحُومُ نَفْسُهُ حَوْلَ الدَّنَاءَاتِ، وَالإِخْلادِ إِلَىٰ الأَرْضِ، وَالمَيْلِ إِلَىٰ الرَّاحَةِ وَالدَّعَةِ، وَمُحَقَّرَاتِ الأُمُورِ؟!، فَلَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ سِوَىٰ مُلاحَقَةِ النِّسَاءِ فِي الأَسْوَاقِ والطُّرُقَاتِ، وَمُتَابَعَةِ المُوضَةِ ، وَمُجَالَسَةِ السَّاقِطِينَ، فَلَوْ أَعَرْتَهُ سَمْعَكَ لَقُلْتَ هَذَا حَيَوَانٌ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ، وَلَيْس لِجَرْحِ المَيِّتِ إِيلامٌ، وَلَعَلَّكَ -يَا بُنَيَّ- قَدْ رَأَيْتَ أُنَاسًا كَانُوا نَابِهِينَ، وَلَهُمْ حَسَبٌ، تَحْسُبُ لَهُمْ، لَكِنْ لَمَّا صَاحَبُوا السَّاقِطِينَ سَقَطُوا ، وَهَانَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ، فَهَانُوا عَلَىٰ أَهْلِيهِمْ، أَلا قَبَّحَ اللهُ هِمَّةً هَذَا حَالُهَا! .

قَبَّحَ اللهُ هِمَّةً تَتَسَامَىٰ
عَنْ كِبَارِ الأَقْدَارِ دُونَ الصِّغَارِ
هِيَ أَهْلٌ لِمَا عَرَاهَا [١] مِنَ الذُّلْ
لِ وَمَا مَسَّهَا مِنَ الاحْتِقَارِ [٢]

(١) عَرَاهَا : غَشِيَهَا وأَصَابَهَا ، وبَابُهُ عَدَا .
(٢) «دِيوان الشَّوْكَانِيّ» (ص١٩٥).

obeikandl.com

١٠ - الْكَسَلُ

أَيْ بُنَيَّ، الْكَسُولُ لا يُصَاحَبُ؛ لأَنَّ صُحْبَتَهُ طَرِيقٌ إِلَىٰ مَوْتِ الْهِمَمِ، وسُقُوطِ المَنْزِلَةِ، وَضَعْفِ الشَّخْصِيَّةِ.

وَيُعَرَّفُ الْكَسُولُ بِأَنَّهُ: الَّذِي يَتَغَافَلُ عَمَّا لا يَنْبَغِي التَّغَافُلُ عَنْهُ[١]، وَيَتَثَاقَلُ عَمَّا لا يَنْبَغِي التَّثَاقُلُ عَنْهُ، وَيَقْعُدُ عَنْ إِتْمامه[٢]؛ وَلِهَذَا عُدَّ مِنَ الحَيَوَانِيَّةِ، وَصَارَ مِنْ جِنْسِ المَوْتَىٰ، وَمَنْ تَعَوَّدَ الْكَسَلَ، وَمَالَ إِلَىٰ الرَّاحَةِ، فَقَدَ الرَّاحَةَ[٣].

فَهُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ المُنَافِقِينَ الَّذِينَ لا يَقُومُونَ إِلَىٰ الصَّلاةِ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ، وَلا يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ، وَإِذَا دُعُوا إِلَىٰ الجِهَادِ، خِلْتَهُمْ جُثَثًا هَامِدَةً، أَتَتْ عَلَىٰ مَوْتِهَا سِنُونَ.

---

(١) «التَّوقيف علىٰ مهمات التَّعاريف» (ص٢٨١).

(٢) «مَقَايِيسُ اللُّغَة» (١٧٨/٥).

(٣) «الذَّرِيعَةُ إلىٰ مَكَارِمِ الشريعَة» (ص٣٨٤).

فَهُو شَرٌّ اسْتَعَاذَ مِنْهُ النَّبِيُّ ـ ﷺ ـ [1]؛ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِمَّا اسْتَعَاذَ مِنْهُ نَبِيُّكَ، وَفِرَّ مِنَ الْكَسُولِ فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ.

لا تَصْحَبِ الْكَسْلانَ فِي حَاجَاتِهِ
كَمْ صَالِحٍ بِفَسَادِ آخَرَ يَفْسُدُ
عَدْوَىٰ الْبَلِيدِ إِلَىٰ الجَلِيدِ سَرِيعَةٌ
وَالجَمْرُ يُوضَعُ فِي الرَّمَادِ فَيَخْمُدُ[2]

(١) رَوَاهُ مُسلِمٌ (٢٧٢٢).
(٢) البَيتَان لأَبِي بَكْرٍ الخُوَارَزْمِيِّ كَمَا فِي «يَتِيمَةُ الدَّهرِ» (٤ / ٢٤٠).

obeikandl.com